هل من فلسفة للكائن عند العرب؟

ليست الحرية عند العرب مستندة، عموما، إلى فلسفة الكائن أو الاونطولوجيا، بل إلى «فلسفة» الخبر والحدث وما إليهما.

ليست الحرية في قوميتنا العربية مذهبا عقليا رياضيًا كما عبّر عنه ليبنتز ومن قبله أرسطو، أو مذهبا مثاليا مغرقا في مثاليته، كما طلع به علينا الفيلسوف الألماني كُنْتْ أو هيغل وأشياعهما، أو مذهبا وجوديا، كما نادى به الفيلسوفان كيركغارد وسارتر وسواهما من فلاسفة الوجودية التي أتبنّاها في بُعدها الروحي في معظم مؤلفاتي.

الحرية في قوميتنا شعور ذاتي أو جماعي غير محدّد وكثيرا ما تبعد شعوبنا عن مواطن المسؤولية الشخصية أو الجماعية وتفضي بهم إلى عزلة ما.

ولشدّ ما تأخذ هذه الحرية شكل صراع عنيف مع قوى داخلية، أو خارجية باغية تأبى - دفاعا عن مصالحها - إلا أن تمارس طاقتها البشرية في السيطرة حينا، وفي التآمر أحيانا. ومسؤوليتنا في هذه الحال تعني مقاومة هادئة وهادية لهذه القوى، وعدم الخضوع لها خضوعا أعمى، ومن ثَمّ الخلاص من ربقتها. وهذا الجانب يبلور نوعا من فكرتنا، أو فلسفتنا عن الحرية. اما الجانب الآخر والأهم، والذي لا يُمكن أن يتم تقدمنا وازدهارنا في معزل عنه، فهو الإصلاح الجذري الذي يتناول مجتمعنا بالتطوير والتغيير، وتحريره من كل ما علق به من رواسب مادية ومعنوية متناقلة على غير طائل.

كلما وجّهنا جهودنا شطرَ هذا الهدف بالذات، جنّبنا قوميتنا من الخطر الذي يتهدّدها في الداخل والخارج. ولا بدّ في هذه الحال، من احترام حرية الذات وإرادتها، قبل احترام الآخر، ليتاح لنا استغلال الكائن العربي في طاقته المبدعة بجميع ألوانها وامكاناتها، وتمكينه من شعوره الحرّ بذاته، ليباشر في عفوية ورغبة، نشاطه في خدمة مجتمعه، ومن ثَمّ تحويل سلبيته إيجابية يفيد منها ويهتدي بها.

لن تتوفر لنا حرية الانتفاع من تجارب الأفراد في مجتمعاتنا، وتفاعل قواهم البشرية المبدعة وحاجات مجتمعهم، ووضع أهدافهم موضع اعتبارهم، إلا إذا تمتّع الفرد بل الشخص منا بحريته المسؤولة، ومارس فعلا هذه الحرية بالاستناد إلى فلسفات كائن بشري وليس إلى مجرّد «فلسفات» للخبر والحدث والتقليد الأعمى.

الجبناء لا يصنعون الحرية، والضعفاء لا يخلقون الكرامة البشرية..

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه